

ظاهرة التكبُّب في شعر جرير وأثره في الشعر العربي النيجيري

الدكتور محمود دن جمعة موسى

Dr Mahmud Danjuma MUSA

قسم اللغة العربية، جامعة إلورن، إلورن، نيجيريا.

P.M.B. 1515 ,Department of Arabic University of Ilorin

E-mail: djmamy2k@gmail.com/musa.md@unilorin.edu.ng

+2347066723469

الملخص

إن العرب أمة تعكس حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية في أشعارها حتى لقد قيل إن الشعر قاموس العرب. هذا، فإن هذا البحث يبحث عن كيفية إخضاع العرب أشعارهم للتكسب والاستجداء والاسترزاق، كما يسلط الضوء على هؤلاء الذين توظفوا فيه وحينما أبدعوه مركزة عنايتها على شعر فطحل من فطاحل التكسب في العصر الأموي ألا وهو جرير حيث درس الباحث نموذجاً من شعره وأثر التكسب في شخصيته والبواعث التي أدت بالشاعر إلى التكسب ومدى تأثير الشعراء النيجيريين بهذه الظاهرة فالخاتمة.

ظاهرة التكسب في الشعر العربي

لم تكن العرب تتكسب بالشعر في قديم الزمان إلا في أواخر العصر الجاهلي، أما الذي يشبه ذلك من النماذج فإنه صنع فكاهاة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها، كما قال امرؤ القيس بن حجر يمدح بني تميم رهط المعلى:

أقرحشا امرئ القيس بن حجر ** بنو تميم مصابيح الظلام

لأن المعلى أحسن إليه وأجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء لقتله بني أبيه الذين قتل بدير مرينا، فقبل لبنى تميم "مصابيح الظلام" من ذلك اليوم لبنت امرئ القيس. وقال أيضاً السعد بن الضباب:

سأجزيك الذي دافعت عني ** وما يجزيك عني غير شكري

فأخبره أن شكره هو الغاية في مجازاته كما قدمت.^١

إنه لحق أن هذين البيتين اللذين وردا لايشم فيهما رائحة التكسب والأول اعتراف بالجميل والثاني تقديم للشكر. وكان الشعر على هذا النمط حتى نشأ النابغة الذبياني فمدح الملوك وقبل الصلّة على الشعر وخضع للنعمان بن المنذر، فسقطت منزلته، واكتسب مالاً جسيماً حتى كان أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة وأوانيّه من عطاء الملوك.^٢

وليس النابغة الذبياني وحيداً في هذه الظاهرة بل شاركه شعراء آخرون. فقد تكسب زهير بن أبي سلمى بالشعر مع هرم بن سنان، وجعل الأعشى الشعر متجراً يتجر به نحو البلدان وقصد ملك

العجم، وقد قيل إنه أول من يسأل بالشعر. والمعروف هو أن النابغة أقدم منه شعراً وأسن منه. ثم إن الحطيئة أكثر من التسؤل بالشعر.^٣

وأما الذي يتعلّق بالعصر الأموي الذي عاش فيه جرير فلقد أخضع الشعراء الشعر فيه للتكسب وجعلوه طريقاً سهلاً إلى الغنى والثراء. وإنما أصبح حرفة مربحة توفر لصاحبها المال الجم والحياة الهائلة والجاه المرجو. وقد أصبح الشاعر مدعواً لأن يحسن هذه الحرفة ويبدل جهده في تجويدها والسبب في ذلك أن الخلفاء والولاة والقواد والأفراد قدموا ألواناً من الهبات والأموال للشعراء، ليحيطوا بهالة من التمجيد والتعظيم تحمل الناس على الإعجاب بهم، والالتفاف حولهم، وكانت فرصة ثمينة أمام الشعراء للثراء والجاه والشهرة.^٤ كان جرير في مقدمة الشعراء المتكسبين بالشعر في العصر الأموي.

ترجمة حياة جرير

الشاعر هو جرير، واسمه حسب المراجع التاريخية جرير بن عطية الخطفي، والخطفي، لقب جده حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن إد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أما أمه، فهي حقة بنت معبد الكلبيّة وإن كان الفيروز أبادي في قاموسه قد ذكر أن حقة هو لقب أمه، وليس اسمها. كان جرير يكتنّى بأبي حرزة، وحرزة هو أكبر أولاده. وقد كان قصير القامة مقارنة بأقرانه. نشأ جرير الشاعر في اليمامة وفيها مات ودفن. ويرجع تاريخ ميلاده إلى سنة ٣٣ هجرية أي ٦٥٣ ميلادية، وتوفي سنة ١١٤ هجرية أي أنه عاش حوالي ثمانين عاماً، ويقال إن أمه قد وضعت في الشهر السابع من الحمل، وكان أبوه عطية ذا نسب كريم، وينتمي إلى قبيلة تميم المعروفة، ولكنه كان فقيراً لا يملك شيئاً. أما جده حذيفة الملقب بالخطفي، فقد كان يملك قطعاً كبيراً من الحمير والغنم، لا الإبل. ومن علامات الثراء في ذلك العصر أن يملك الثري الإبل. وقد أتيح لجرير أن يكون جده شاعراً، وقد تعلم منه جرير الشعر وهو في سن مبكرة. قضى جرير سنين عمره، وهو يكافح ويندود عن شرف قبيلته ويرد بالهجاء المقذع على شعراء القبائل الأخرى. ويعتبر جرير واحداً من ثلاثة الشعراء الفطاحل في العصر الأموي، وهم: الأخطل، والفرزدق، وجرير. وتذكر المراجع المختلفة أنه لم يصمد لجرير إلا الأخطل والفرزدق، بينما اندحر باقي الشعراء أمام سلاطة لسانه وجحيم هجائه.^٥

مناسبة النص

جرير يمدح عبد الملك بن مروان متكسباً

النص:

أتصحوا أم فؤادك غير صاح ** عشية هم صحبتك بالروح
تقول العاذلات علاك شيب ** أهذا الشيب يمنعي مراحي

يكلفني فؤادي من هواه ** طعاعن يجتز عن على رماح
 عرابا لم يدنّ مع النصارى ** ولم يأكلن من سمك القراح
 تعزت أم حزرة ثم قالت ** رأيت الواردين ذوي امتناح
 تعلل وهي ساغبة بنهما ** بأنفاس من الشبم القراح
 سأمتاح البحور فجنييني ** أذات اللوم وانتظري امتياحي
 ثقي بالله ليس له شريك ** ومن عند الخليفة بالنجاح
 أغثنى يافداك أبي وأمي ** بسبب منك إنك ذوارتياح
 سأشكر إن رددت علي ريشي ** وأنبت القوادم من جناحي
 أستم خير من ركب المطايا ** وأندى العالمين بطون راح
 حميت حمى تهامة بعد نجد ** وماشئ حميت بمستباح^٦

الدرس والتعليق

يبدو أن الأفكار في هذه القصيدة تشعبت وهي ثلاثة: الغزل، والتكسب والمدح بينما أن التكسب هو الغرض الجوهرى والسبب الحقيقي في مدح الممدوح. ويتمثل الغزل في الأبيات الأربعة الأولى حيث إن الشاعر يخاطب نفسه سائلاً بعد أن فارقها الأحباء في تلك الليلة وحينما يجيب عن سؤال النسوة اللاتي لا يؤمنن بلهو الشيخ المشيب بل إنه يقر أن الشيب لا يمنعه من اللهو، خلاف العقيدة الكميت بن زيد الذي كان يقول:

طربت وماشوق إلى البيض أطرب ** ولا لعباً منى أذو الشيب يلعب^٧

وقد يشم الباحث أو القارئ العزيز في البيت الثالث خصيصة من خصائص الغزل العذري الذي هو الموت في العشق ولزوم محبوبة واحدة، لقوله: "يكلفني فؤادي من هواه" والتكليف هو وجوب تحقيق شئ سواء نفع أم ضرر بينما البيت الرابع وصف الطاعنات بأصالة العروبة. وأما التكسب فيتمثل في الأبيات المنتصفة من البيت الخامس إلى العاشر. فانظر إلى الشاعر كيف ساق نفسه من دون صون عرضه إلى المذلة والتحقير وإراقة ماء الوجه بأنه لم يستمر ما به من الضر لكنه جاهر به فصوّر حال زوجته وبنيه مع علمه بأنه سيسير به الركبان وينتشر في البلدان لكنه لا يبالي.

يرى الباحث أن جرياً فيه خصائص الرجال الأكفاء فهوقوام لزوجته ولقد مثل ذلك في قوله حين يؤمنها "سأمتاح البحور"، وقوله "ومن عند الخليفة بالنجاح". ثم ظهر أنه مؤمن لا يشرك بالله في قوله "ثقي بالله ليس له شريك" إلا أنه مباشرة بعد ذلك شكى ضعفه وحزنه إلى الخليفة فاستغاثه، الأمر الذي قد يتوقع أن يكون بينه وبين ربّه. قال "أغثنى يا فداك أبي وأمي".

يمكننا هنا أنه ينبغي إثارة مسألة مهمة تتعلق بعقيدة السلفية والصوفية، وهي الاستغاثة. فالدين والحياة عند السلفيين موضوعان على ما فعله الرسول أو قاله أو قرره وما جرى من الصحابة والتابعين الأسلاف، هذا وإن لم يكن جرير من الصحابة فهو بلا شك من التابعين، إذًا فهو من السلف وقد استغاث.

وقد شبه نفسه بالطائر الذي تنف ريشه، كما أن في قوله "ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح كنايتين رائعتين أولاهما عن موصوف، وهم جميع العرب والثاني كناية عن صفة وهي الكرم، مما جعل بعض النقاد يعدون هذا البيت أمدح بيت قالتها العرب، وهو استفهام تقرير جميل^٨. أثر التكسب في شخصية الشاعر جرير

إن التسوّل لا يكون ولا يصدر إلا من تلقاء الأشخاص الرذائل بينما يبتعد عنه الأشخاص الفطاحل ويندر أن ترى سائلا متكسبا دامت عزته وخلدت رفعتة. ولا يصدر التسوّل درجة كثير من الشعراء المعززين لم يكن جرير منهم ولكنه كابد قطعة من الذلة في مطلع هذه القصيدة التي يدرسها الباحث. يقول:

أتصحوا أم فؤادك غير صاح ** عشية هم صحبك بالرواح

ويقال إن عبد الله انتقد هذا البيت لأن فيه ما يوهم أن المخاطب هو الخليفة ولهذا قال لجرير "بل فؤادك أنت يابن المراغة". ولكنه عند ما سمع بيت جرير "ألستم خير من ركب المطايا..." طرب طربا شديداً وقال: "كذلك نحن وما زلنا كذلك" وأشار إلى بعض من حوله قائلا: بمثل هذا فليأتني المادحون^٩ لولا أنه عرف من أين تؤكل الكتف لذلّ.

بواعث جرير على التكسب

إنما بعثه الآتية:

- شدة فقره
- عدم تحمله
- وغيرة الفرزدق

من أثر ظاهرة التكسب في الشعر العربي النيجيري

ومما يضرب مثلا في إثراء المكتبات الأدبية بالأشعار؟ هو ذلك الحفل الذي يقيمه جامعة ولاية كوارا لإلقاء أشعار المناسبات، وجمعتها في كتاب أسمته "حصاد المأدبة" وقد نال هذا الكتاب عناية الباحثين والمفكرين حتى يجرى عليه البحث العلمي في جامعة إلورن على مستوى الدكتوراه. قدّمت هذه الجامعة لكل شاعر الساعة الجدارنية وإمارة الشعر للدكتور عيسى ألي ووسام الشاعرية للدكتور عثمان عبد السلام الثقافي، كلاهما محاضران بقسم اللغة العربية بجامعة إلورن، نيجيريا.

ويجدر بنا ذكر الشيخ أحمد بن أبي بكر الفلاني الإلوري وعلاقته بأمراء إلورن ولقد قرض قصيدة في شكر أمير عبد القادر ابن الشيخ علي على هدية قميص أرسله إليه في عيد الأضحى ١٩٣٠م وهي:

مني إليك تحيات أمير لنا مع سلام وإكرام كما زانا
وبعد فالمرء مأمور لمنعمه بشكره ثم ينهي عنه كفرانا
لذا شكرت أمير المؤمنين بما أهدى إلي قميصا نسج سودانا
جاء إلي به إدريس مرسله صبيحة قبل يوم العيد مضحانا ١٠

توحي هذه القصيدة أن الشاعر لم يكن يتكسب بالشعر كما ظن بعض النقاد كما يصح قولنا إنه لم يكتسب الهدية بالشعر لأن الهدية سبقت الشعر وتحدى ذلك إلى كتابة تاريخ مدينته حيث جمع في كتابه "أخبار القرون" عددا من تاريخ أمراء بلد إلورن الذي قال عنه الإلوري... "فإن في نفسنا شئ من موضوع هذا الكتاب ومضمونه فنأخذ عليه المؤلف وهو أنه كتب عن الأمراء دون العلماء فكأنه ينحاز إلى الأمراء لنيل حظوظهم لو أنه كتب عن العلماء لكان أكثر فائدة لأنه أدرك الرعيل الأول منهم....." ١١

فلا يرى الباحث جناحا على المؤلف لكون عنوان كتابه غير مخالف لمحتواه، ولكونه أول من شرع في كتابة تاريخ إلورن بادئا بتاريخ الأمراء الذين هم علماء من ولد عالم ومعلم وليس لازما أن يستوعب جوانب التاريخ فعلى الباحثين بعده أن يتناولوا الجوانب الأخرى والذي يهم الباحث هنا هو إثبات الأمر أن الشعر يجلب الهدايا والهدايا تبعث عاطفة الشاعر. إن صفحة التاريخ لا تنسى ذلك الشاعر المطلق عيسى ألي وما اكتسب بأشعاره من جوائز ودياشين كثيرة منها: الجائزة الأولى في المسابقة الشعرية التي نظمتها جامعة الملك سعود بالرياض لمقاومة التدخين عام ١٩٩١م هاك بعض أبياته.

أيها الشعر ثر على التدخين آفة العصر فتنة المسكين
جعل الصدر مرتعا لجراثي م وقد جرّه بداء دفين
متعاطيه كان رهن هواه وتراه يسعى له كل حين
كيف يحلو لعاقل يبذل المال ليلقي بنفسه في فتون
وسماء القلوب أنقى صفاء كيف تلتاث بالدخان المبين ١٢

هذا الشعر جلب جائزة وقد هيجت الجائزة عاطفته حين ولي إمارة الشعر في جامعة ولاية كوارا وذلك في مآدبها فقال:

قد تمشى القريض في طيلسانه ** زاهيا كالأمير في سلطانه
تتمازى بحوره في معانٍ ** رائعات تزيد لمع جمانه

عجب في جماله المتناهي ** آية في بديعه وبيانه
وينال الخلود من جودة السب ** ك وكان الخيال من ديدانه
لا تلوموا محبه فهو عانٍ ** لا يروم الهروب من زنانه
بذل النفس والنفيس لينموا ** وارف الظل في ثرى وجدانه
هو لا يستلد شيئا سواه ** أي شهد ألد من ديوانه^{١٣}

كلمة رئيس التحرير حصاد المأدبة

ومن الشعراء النيجيريين الذين حازوا جوائز شعرية بأشعارهم الممتازة: إبراهيم إمام شئت ولقد فاز بمراكز متقدمة والمسابقات الثقافية التي تنظمها عمادة شؤون الطلاب بجامعة الإمام وفاز بجوائز متعددة في مجالي الشعر والمقال^{١٤} ولا أنسى ذكر الشاعر عبد العزيز بن محمد بن سلمان الياقوتي فقد فاز بالجائزة الأولى في مسابقة الشعر نظمت لذكرى العيد الأربعيني لمدرسة دار العلوم لجهة العلماء والأئمة بالورن. هاك بعض أبيات القصيدة بعنوان وما أدراك مالدار.

ذكراك ليلي أيا بن الدين والأدب ** ترسيك إن دمتها في شاطئ الكرب
أبدل بها أمة طابت منابهم ** كم شيدوا بالتقى مجداً ومن يرب
مجد العبادة والعرفان بعدهما ** مجد الأمان ومجد الدأب واللقب
أولئك القوم لم يكثر بمثلهم ** هذا الزمان لما فيهم من العجب
فالجّد جدّ بهم في غرس مدرسة ** تضارع الأزهر الأعلى ولم تغب
دامنبح للهدى دار العلوم وما ** أدراك مالدار بين العجم والعرب^{١٥}

ولم يكن محمد الجامع سعد الله عبد الكريم ممن ضن بأشعارهم حتى فاز بالجائزة الأولى في مسابقة مدح الرسول في لاغوس وكان تقدير تلك الجائزة ما يكفي لدفع رسوم مرحلة الماجستير بجامعة إلورن، وهو يقول في تلك القصيدة بعنوان: الأمن نور أنت مظهر فجره.

عنيت بمدح المصطفى شعراء ** من روضهم قد يرتوي الحكماء
لم لا وإن محمداً رمز العلا ** صنع النبوة فيه وهولواء
والله يرزق بالهدى من شاءه ** وكما يضلّ، ولم تكن بغضاء
فأعدّ للأمر الجليل محمداً ** إن العظام كفؤها العظماء
فالمصطفى دوماً يحبذ نهجه ** قوم يضاد مسيرهم أهواء
يسعون دأباً للفضائل نحوه ** كالأسوة الكبرى، ولا ضرأ^{١٦}

الخاتمة

لقد كان الشعراء يجلبون بأشعارهم الهبات والهدايا من قبل الأمراء والملوك بداية من العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وعبر جميع العصور الأدبية حتى العصر الحديث إلا أن طريقة الجلب تختلف من شاعر لآخر، فهناك شعراء مُتَكَسِبُونَ وشعراء مُكْتَسِبُونَ، فلقد لاحظ الباحث أنّ أكثر شعراء الجاهلية كانوا متكسبين إمّا لشكوى الفقر إلى الأمراء والوزراء والملوك أو لمدهم إيّاهم. والشعراء الإسلاميون كانوا مكتسبين، ولقد اكتسب حسان بن ثابت حلول ومعيّة روح القدس، كما اكتسب كعب بن زهير بردة النبي صلى الله عليه وسلّم وكان جرير والأخطل والفرزدق تكسبوا بأشعارهم حطام الدنيا من ملوك بني أمية، إلى أن اكتسب شوقي إمارة الشعر وحافظ إبراهيم شاعرية النيل.

أما في نيجيريا، فقد صار عادة المستمعين إلى شاعر إنفاق الأموال عليه تشجيعاً وتقديم الهدايا ترغيباً، ممّا حث الشعراء على قرض الشعر فأثروا بذلك المكتبات الأدبية، ويندر أن تحضر حفلة إسلامية في إلورن وجميع بلاد يوربا تخلو من شاعر أو أكثر يلقي الشعر بتلك المناسبة ويجذب به قلوب السامعين سواء فهموه أو لم يفهموا.

ولم يكن جرير يتكسب لعباً ولهواً إنما حملاً إلى ذلك شدة فقره وعدم تحمله ورفاهية العيش التي كان الفرزدق يعيشها وسلط الباحث الضوء على بعض ألفاظ تكسبية ثم إن خياله وعاطفته حارتان رائعتان. وأنه إن صح أن يستغيث بالملوك، وهو تابعي عاش مع بعض الصحابة ولم نرمهم من بدّعه أو كفره، فلا جناح على الصوفيين وغيرهم ممن يستغيث بشعره، وشعره أيضاً يصح أن يطلق عليه شعر الاستغاثة.

الهوامش

- ١- القيرواني، أبو الحسن بن رشيق الأزدي، العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع ط، ٥، ١٩٧١م ص ٨٠.
- ٢- القيرواني، المرجع نفسه ص ٨١.
- ٣- القيرواني، المرجع نفسه ص ٨١.
- ٤- عناد غزوان اسماعيل (والآخرون)، الأدب العربي للصف الخامس الأدبي، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٤م، ص ١٥٣.
- ٥- الانترنت، "الشاعر جرير: أحد أركان المثلث الأموي"، الربيعاء، ١١ سبتمبر ٢٠١٣، ١٤:١٧.
- ٦- حسن شاذلي فريهود، (والآخرون)، الأدب: نصوصه وتاريخه للصف الأول الثانوي، المملكة العربية السعودية وزارة المعارف الطبعة الرابعة ١٩٨١م، ص ٢٠٢.
- ٧- عناد غزوان اسما عبل (والآخرون)، المرجع السابق ص ١٨٣.

- ٨- حسن شاذلي خرهود (والآحزون)، المرجع السابق ص ٢٠٣.
- ٩- المرجع نفسه ص ٢٠٣.
- ١٠- الإلوري، أحمد بن أبي بكر الفلاني، تعريف وتقديم وتعليق آدم عبد الله الإلوري، أخبار القرون من أمراء بلد إلورن، ط (١)، ١٩٩١م، ص ١١.
- ١١- المرجع نفسه، ص ٢٢.
- ١٢- عيسى ألبي أبوبكر (الدكتور) الرياض ديوان عيسى ألبي أبوبكر، Alabi printing production Nigeria. ٢٠٠٥م ص ١١٨.
- ١٣- حصاد المأدبة، تحرير مشهود محمود جمبا (الدكتور)، Kwara State University Press، ٢٠٠٤م، ص ر-ش.
- ١٤- المرجع نفسه، ص ٢.
- ١٥- الياقوتي، عبد العزيز بن محمد بن سلمان، وما أدراك مالدار (مخطوطة)، ٢٠٠٠م.
- حصاد المأدبة، ص ١٥-١٦.